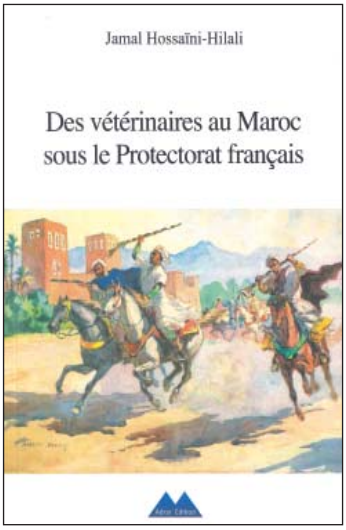

Jamal Hossaïni-Hilali.- ***Des vétérinaires au Maroc sous le Protectorat français*** **- (Rabat: Adrar Édition, 2015).**

جمال الحصيني هلالي.- بياطرة فرنسيون بالمغرب على عهد الحماية.

صدر عن دار أدرار للنشر في سنة 2015 كتاب لجمال الحصيني هلالي، أستاذ بالمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة، والكتاب الصادر بالفرنسية يمكن تعريب عنوانه هكذا: **بياطرة فرنسيون بالمغرب على عهد الحماية**. وكما يبدو من عنوانه، يفتح الكتاب صفحة جديدة في تاريخ الطب بالمغرب، ويبحث في الطب البيطري بهذا البلد عبر مؤسساته ورجالاته، سعيا إلى معرفة مبررات وجوده وأهدافه ومبتغياته .

يتكون الكتاب من 189 صفحة موزعة على تقديم وتصدير، وخمسة عناوين لا تخضع لأي تبويب أو ترقيم ثم خاتمة، وقد ذيل المؤلف كتابه ببيبليوغرافيا بلغت مائة عنوان وقوائم بالجداول والصور وملحقين، أحدهما خاص ببياطرة لم يتمكن المؤلف من دراستهم، والثاني يضم لائحة للمقيمين العامين الفرنسيين خلال فترة الحماية، بالإضافة إلى قائمة بمن وردت أسماؤهم في المتن.

يمكن تقسيم المعطيات الواردة في هذا الكتاب إلى ثلاث نقط، سيرا مع التصميم المعتمد من لدن المؤلف، تهم أولى النقط التقديم وظروف التأليف والإطار التاريخي لتأسيس الحماية، وتتوخى النقطة الثانية الخوض في تربية الماشية بالمغرب، وما يرتبط بها من مصالح وطب بيطري، وما كان معتمدا فيها من أبحاث ومختبرات وتجارب، وتم تخصيص النقطة الثالثة لبيوغرافيات همت اثني عشر طبيبا بيطريا.

في النقطة الأولى، قدم المؤلف لكتابه بالإفصاح عن أن فكرة تأليفه لهذا الكتاب كانت نواة، ما فتئت تنمو وتتطور لتستوي، بعدما اجتمع له من أطراف الموضوع،

وتستقيم على العنوان الذي يحمله الكتاب، ويشير المؤلف إل أن صديقه الراحل أحمد تفاسكا، وهو ممن سبق أن ألفوا في الفلاحة الكولونيالية، هو الذي أمده بنسخة مصورة من كتاب: **خمس وعشرون سنة من الأبحاث البيطرية بالمغرب 1913-1938** لهنري ڤولو (Henri Velu)، أحد نطاسيي الطب البيطري الفرنسي بالمغرب، ومن هنا انفتحت أمامه آفاق جعلته يلج عالم الطب البيطري من أبوابه الواسعة، ويجد في البحث عن نسخ مصورة مما كتبه ڤولو، مندفعا برغبة ملحة في الإلمام جهد المستطاع، بتاريخ الطب البيطري الفرنسي بالمغرب.

وقد ترسخت لدى المؤلف فكرة إخراج كتاب حول البياطرة الفرنسيين بالمغرب، لما تبين له كما يقول: "أن جهلا مطبقا يلف تاريخ هذا الطب" مشتكيا من قلة ما كتب في الموضوع، وندرة ما تحت اليد، مما يسعف من الوثائق والمستندات.

وإذا كان المؤلف قد حصر موضوعه حول الطب البيطري في منطقة الحماية الفرنسية، فما ذلک إلا لعدم إتقانه اللغة الاسبانية، غير أنه لا يخفي تمنيه أن يتولى أحد الزملاء ممن يتقنون هذه اللغة، بالتأليف عن الطب البيطري في منطقة النفوذ الاسباني.

قدم المؤلف لدراسته بإطار تاريخي، تناول فيه بعجالة تأسيس الحماية بالمغرب، وما سبق ذلک من ممهدات، جعلت البلاد في موقع تتقاذفه رياح الضغوط العسكرية والاتفاقيات اللامتكافئة، ناهيک عن الديون والتهديدات المباشرة بالتدخل من هذا الطرف أو ذاک، فما كان من وضعية كهذه إلا أن تنتهي بالبلاد إلى الدخول تحت الحماية الفرنسية، مع ليوطي (Lyautey)، كأول مقيم عام في أبريل 1912.

ولم يفت مؤلف الكتاب، وهو يتحدث قبل الحماية عن نزول الجيوش الفرنسية بالدار البيضاء، أن يثير فكرة تنم عن شعوره، وهو يكتب عن الطب البيطري، بأهمية الطب كممهد للاستعمار ورديف لأهدافه، فربط بين أهمية البيطرة ودورها في مساعدة الجيوش الفرنسية، وهي تجوس خلال أراضي الشاوية، وقدم في هذا الصدد مقالين رائدين في البيطرة ومواكبتها للاحتلال أولهما مقال بونافوس (Bonnafous) في سنة 1909، وهو بعنوان "تقرير تاريخي حول المصلحة البيطرية لقوات النزول بالدار البيضاء،" اهتبل فيه كثير من المعلومات عن خيول الشاوية، وما ينجع من علاج في ما كان يصيبها من أمراض أو جروح.

ثاني المقالين، مقال بوشي (Bouchet)، المؤرخ بعام 1910 وعنوانه: **دراسات بيطرية حول الشاوية**، وقد جاء مستوفيا لما يتعلق بأوصاف الخيول والتدجين والبيطرة التجريبية.

وفي النقطة الثانية عرض المؤلف لتربية الماشية والطب البيطري وأشار إلى أنه، مع الإدارة الاستعمارية قد أولت بعد تأسيس الحماية أهمية كبرى لتربية الماشية وتنمية القطعان، لأسباب مرتبطة بالرغبة في تقوية قدرات المغرب في هذا الباب وسد حاجيات فرنسا من اللحوم، ذلك أن تنامي استهلاك اللحم لدى الفرنسيين حتم ضرورة الرجوع إلى المستعمرات لسد النقص الحاصل في مادة اللحوم، ولو أن نقل الحيوانات الحية كان يطرح مشكل نقل الأمراض المتفشية بين القطعان، من هنا كان لازما التصدي للأدواء المتمكنة من الماشية، والاهتمام بها ووضع بنيات لذلك، وتوفير المواد العلفية وتطويرها.

غير أن سيطرة الاستعمار على مناطق الدير، أدى فيما أدى إليه، أن توسعت رقعة الأراضي الزراعية، وحرم "الكسابون" المغاربة من مراعي الأزغار، فقضي بذلك على حركة الانتجاع وهوت إحدى أسس الاقتصاد الرعوي، ذلك أن القطيع عوض أن ينزل إلى الأزغار كان يمكث في الجبل، وفي حال استمرار تساقط الثلوج لن يتوفر الراعي ولا القطيع على ما يسد الرمق. وكان إنقاذ الماشية وتطويرها، يقتضي وجوبا خلق مصلحة بيطرية تتولى الأنعام والسوائم بالاهتمام والرعاية، وذلك ما حمله قرار وزاري في 21 نونبر 1913 ظهرت بموجبه مصلحة، اتخذت في البداية اسم: "مصلحة التدجين والجوائح الحيوانية" قبل أن يحولها ظهير فاتح نونبر 1917 إلى "مصلحة تربية الماشية."

ويعود تنظيم هذه المصلحة إلى ثلاثة من كبار البياطرة الفرنسيين، يبدو أن اختيارهم لذلك كان بإيعاز من ليوطي هم فرانسوا مالي (François Malet) وتيوفيل مونو (Théophile Monod) وهنري ڤولو (Henri Velu). واعتمدت مصلحة تربية الماشية استراتيجية كانت تسعى من ورائها إلى الاهتمام بالحالة الصحية للقطيع وتطوير الإنتاج.

انتظمت في مصلحة تربية الماشية مجموعة من الأجهزة، كالمجموعات البيطرية المتنقلة، وتذكر بالمجموعات الصحية المتنقلة بالنسبة للآدميين، وقد لعب بياطرتها دورا مهما في علاج ما كان يضرب الماشية من أمراض، والعمل على ربط علاقات مع مربي الماشية، وكانت العلاجات تقدم مجانا في إطار زيارات للأسواق والدواوير، وتنظيم جولات تحسيسية، وتوفير التلقيح والحمامات الخاصة بالحيوانات. واقتضى

الأمر من جهة أخرى ظهور هيئة الأباطرة وعددا من البياطرة المفتشين، بالإضافة إلى مفتشيات جهوية ومفتشيات الدوائر التي بلغ عددها 35 في نهاية عهد الحماية. وحتى تحفز مصلحة تربية الماشية "الكسابين،" فإنها كانت تخصص لهم جوائز، وتشرف على مباريات، تجزل للفائزين فيها مكافآت قديرة، قد تكون عينية، بتقديم فحل من الثيران أو الأكباش للفائز يحسن به النسل.

وكان الطب البيطري (الخاص والعام) يمارس بشكل لم تكن تراعى فيه مسألة الدبلوم إلى أن أقر ظهير 12 ماي 1914 ضرورة الحصول على دبلوم. وكان هذا الطب، شأنه في ذلك شأن الطب الآدمي قد بدأ عسكريا، وحظي باهتمام ليوطي، إذ لم يكن لديه فرق بين طب عسكري وآخر مدني، وكانت تعليماته تصب في اتجاه علاج الأهالي وعلاج أنعامهم قصد التقرب منهم وكسب ودهم.

وفي معرض حديثه عن البحث البيطري، اكتفى المؤلف بذكر البنيات وأهمها أربعة: معهد باستور بطنجة، معهد باستور بالدار البيضاء، مختبر الأبحاث بالدار البيضاء ومعهد البيولوجيا الحيوانية بالرباط بعد الحرب العالمية الثانية، ويقدم وصفا عن كل معهد واختصاصاته. ويختم المؤلف حديثه عن مصلحة تربية الماشية بمختبر الأبحاث بالمصلحة، فتراه يحدثك عن نشأته واهتمامه بما هو عسكري مرتبط بالدواب، وما هو مدني مرتبط بالماشية.

تربع هذا المختبر على بناية صلبة سنة 1923، بعد أن كان بناءا خشبيا، تولى إدارته هنري فولو، وعندما غادر المغرب في1938 تولى مكانه مساعده زوطنر (Zottner). ومن مهام هذا المختبر تشخيص الأمراض لفائدة مصلحة تربية الماشية، ودراسة أمراض الحيوانات والوقاية منها وعلاجها، كما يحتوي المختبر على خزانة خاصة، ومختبر للتكوين، وضيعة للتجارب بعين الجمعة.

وخصص المؤلف القسم الأخير من كتابه، وهو ما أفردنا له النقطة الثالثة من هذا العرض، لبيوغرافيات مجموعة من الأطباء البياطرة، الذين عملوا بالمغرب خلال فترة الحماية، وعلى رأسهم ڤولو الذي أفرد له ولأعماله واحدة وثلاثين صفحة. وفي حديثه عن هؤلاء البياطرة يقدم نبذة عن حياتهم ودراستهم ومسالكهم التعليمية والمهنية وما تقلدوه من مناصب وتحملوه من مسؤوليات.

يعتبر ڤولو من أهم الأطباء البياطرة الذين مروا بالمغرب، إذ قضى به زهاء خمسا وعشرين سنة قيما على مختبر الدار البيضاء، وضع خلالها البحث البيطري بالمغرب على قرار مكين، بما قدمه من أعمال علمية بلغ عددها 328، فحاز بذلك عددا من الجوائز وتحمل عدة مسؤوليات في جمعيات عالمية، كما تربع عضوا في عدد من الأكاديميات. وقد غادر ڤولو المغرب سنة 1938، وعين في مصنع البارود الفرنسي، فهل كان لذلك علاقة بالاستعداد للحرب العالمية الثانية؟ يسوق المؤلف أن تعيينه بمصنع البارود كرئيس لمختبر الوقاية، كان بسبب ما كان له من أفكار حول الحرب الميكروبية، التي أعطى حولها محاضرة لضباط حامية الدار البيضاء، وهي التي تولت نشرها مجلة "ماروک ميديكال، (Maroc Médical)" تحت عنوان سؤال محذر "هل الحرب الميكروبية ممكنة التحقيق؟"، كما أوضح ضعف فرنسا في البحث العلمي مقارنة مع ألمانيا، ودعا إلى ضرورة توفرها على برنامج ضد الميكروبات. وبعد احتلال ألمانيا أراضي فرنسا في يونيو 1940، رجع ڤولو إلى تولوز (Toulouse)، وتقاعد من الجيش ليدخل مختبر صوفرابن (Sofrapen)، كمدير للأبحاث الميكروبيولوجية ومكث بهذه الوظيفة إلى سنة 1957، وقد توفي في 25 نونبر سنة 1973 عن عمر يناهز 86 سنة.

وقدم المؤلف لائحة بأعمال ڤولو حول الأمراض التي تعيث في الحيوانات، ثم تناولها واحدا واحدا، مع إبراز ما قدمه ڤولو وبياطرة آخرون من علاجات. ومن الأمثلة على تلك الأمراض، تريبانوسومياز والدورين وغيرها. وساهم ڤولو من جهة أخرى في دراسة التسمم الغذائي لدى الحيوان، وعلى الخصوص لدى الخيول، كما درس الدرغموس وما يحدثه من خراب للأسنان متى وردت الحيوانات مياها، تجري في تربة غنية بالفوسفاط. بالإضافة إلى ذلک، فقد ساهم ڤولو بفعالية في التدجين وتحسين المراعي وتأمين كلإ صحي، وأصدر في هذا الصدد كتابا عنوانه: "التغذية وغذاء الماشية بالمغرب." وهناک بياطرة آخرون عددهم إحدى عشر طبيبا بيطريا، تعرض لهم المؤلف بالإسهاب متى أسعفته المعطيات حولهم، وبالإيجاز إذا شحت المعلومات، ولن ندخل في الحديث عنهم فالرجوع إلى الكتاب أغنى وأفيد.

وفي خاتمة كتابه، يشير المؤلف، بتواضع الباحث، إلى أنه قد حاول أن يكون موضوعيا، بعيدا عن الشوفينية، وهذا أمر لاحظناه أثناء قراءة الكتاب، إذ وجدنا مؤلفه يهاب الأحكام القاطعة ويتوجس الزلل، ولم ينس أن يذكر بأن علاقات ولقاءات وصداقات، قد تركت بصماتها في هذا العمل، كما أثنى على بياطرة المغرب المستقل على

ما راكموه من تجارب وما تحملوه من مسؤوليات. وطالب في الأخير من قراء كتابه ألا يترددوا في إبداء ملاحظاتهم وانتقاداتهم، عسى أن يكون ذلك نافعا في طبعة ثانية.

أما وقد انتهينا من قراءة كتاب: "بياطرة فرنسيون بالمغرب على عهد الحماية،" ودخلنا مع مؤلفه في تاريخ البيطرة، فالكتاب على صغر حجمه ملم إلى حد كبير بموضوعه الواسع الأطراف المتشعب المسالك، وهو محاولة جادة في موضوع جديد على مؤرخي الحماية على وجه التخصيص، ولاشك والحالة هذه، أنه عمل سيكون له ما بعده. وما أظن قراءة عجلى بهذا الشكل ستغني عن الرجوع إلى الكتاب والتمعن في ما بين تضاعيفه من معطيات. ويثير الكتاب عند قراءته بعض الأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلى كل من اطلع عليه، من قبيل كيف كان المغاربة يعالجون مواشيهم ودوابهم قبل مجيء البيطرة الفرنسية؟ كيف كانت حالة القطعان قبل انتصاب الحماية ومعها البيطرة العصرية؟ ألم تكن هناك بيطرة تواتي وتساير ما كانت عليه بنيات المجتمع يومئذ؟ وقد نتساءل كذلك عن غياب كتاب مهم من لائحة المراجع المعتمدة، وهو كتاب لوسيان راينو (Lucien Raynaud) الصادر سنة 1902 تحت عنوان:

(*Étude sur l'hygiène et la médecine au Maroc suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'Emprie.*)

وقد أفرد فيه صاحبه فصلا عن أمراض الغنم والبقر والماعز والجمال، وأسمائها المحلية وما كان يستعمل في علاجها، وهذا فضلا عن تقديم نظرة مقتضبة عن المناخ والطقس بأهم المدن المغربية. وتثير قراءة الكتاب بما يحتويه من أسماء فرنسية لأمراض الخيل والأنعام وغيرها، ضرورة العمل على إيجاد مقابلها باللغة العربية، والاجتهاد لوضع معجم خاص بتعريب أسماء الأمراض والحيوانات والنباتات والمصطلحات الطبية.

بوجمعة رويان
جامعة ابن طفيل، القنيطرة